# أضواء جديدة على العلاقات السياسية والثقافية

# بين المغرب المريني

## والمشرق الإسلامي في العصور الوسطى

دكتـــور/ الدهماني سالم الدهماني

جامعة السابع من ابريل الزاوية

كلية لآداب

تتناول هذه الدراسة بالسرد والتحليل العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب المريني والمشرق الإسلامي والذي سنصلت الضوء فيه على دور المغرب في ربط علاقاته بالمشرق وكيف احكموا بني مرين قبضتهم على المغرب الأوسط من أجل تأمين قوافل الحجيج المغربي والتي كانت محور لربط العلاقات بين هذه الديار وتلك الديار كما يشمل هذا العرض ملاحظات الرحالة المغاربة وعن أحوال البلاد بالمشرق في مصر والحجاز وفارس وعمان وجزر المالديف بآسيا وغيرها من المناطق، إن الاهتمام بناحية العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب في العصر المريني والمشرق الإسلامي تبين مدى ما كان ينعم به المغرب من سمعة وما كان يحضي به من مركز مرموق لدى الحاكمين والشعوب في كل جهات المعمورة.

لقد عُرف عن المغرب بأنه تفاعل مع سائر الحضارات و واكب سائر التيارات و كل الفضل والتقدير يرجع إلى حرص المغاربة على المعرفة والإطلاع وإقبالهم على الاحتكاك بالناس وتهافتهم على العلماء والعظماء في معظم أنحاء المعمورة شرقاً وغرباً، فكانت السفارات المتوالية السامية في أهدافها والمعبرة عن روح التواصل الأخوي بين المغرب والمشرق خير دليل على ذلك.

لقد تطلع سلاطين بني مرين إلى ديار المشرق الإسلامي باعتبار أن المغرب امتداد طبيعي لمعظم البقاع في البلاد الإسلامية و كانت مصر تمثل أولى محطة الأنظار لحكام بني مرين، لان مصر كانت البوابة الرئيسية التي تطل منها المغرب علي بلاد المشرق الإسلامي فكان تركيز بني مرين منذ الوهلة الأولى هو تحسين علاقاتهم مع

الديار المصرية وبقية أجزاء المشرق الإسلامي من الشام والعراق وفارس والجزيرة العربية.

لقد كانت العلاقات بين المغرب وبلاد المشرق مرتبطة دائما بقوافل الحجيج المغربي التي تسافر سنويا إلى الديار المقدسة وكانت تلك القوافل هي الأخرى مرتبطة بظروف الحياة السياسية والأمنية التي تعيشها تلك المناطق الساحلية، و كان لسوء الأوضاع السياسية سبباً رئيسياً لعدم استمرار قيام علاقات رسمية، ففي سنة ٧٠٣هـ ـ ١٣٠٣م استطاع السلطان المريني أبو يعقوب يوسف عبد الحق المريني إن يسيطر علي المغرب الاقصى الذي كان يحكمه بنو عبد الواد والذين كانوا يقفون حجرة عقب أمام قوافل الحجيج المرينية القاصدة إلى مصر ومنها إلى مكة [١].

لقد بدأت أول علاقات بين بني مرين وبلاد المشرق عندما خرجت أول قافلة تحمل الحجاج المغاربة إلى مكة والأراضي الحجازية الأخرى سنة ٧٠٣هـ - ١٣٠٣ م وكان السلطان أبو يعقوب يوسف المريني قد خصص أهمية كبري لخروج تلك القافلة إظهار لأهمية الدولة المرينية في بلاد المغرب وقد أمر السلطان أصحابه "باستنساخ مصحف رائق الصنعة كتبه و نمقه احمد بن الحسن الكاتب المحسن و عمل غشاءه من بديع و استكثر فيه من معالق الذهب المنظم بخرازات الدر والياقوت وجعلت منها حصاة وسط المعلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسن واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على المحرم الشريف"[٢].

وقد عين السلطان على القافلة قاضياً يدير شؤون القافلة ورافق القافلة فرقة من الحراس تتكون من حوالي خمسمائة من فرسان قبيلة زناته من نواحي فاس و كان السلطان المريني قد "خاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته وأتحفه بهدية من طرف بلاده واستكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة"[٣].

وكان تلك الخطاب قد استلمه احد رجال المماليك العاملين في البلاط المريني بفاس ويعرف باسم الشهرزوري ويشير ابن الوردي إن تلك الرسائل والهدايا القيمة قد وصلت إلى الديار المصرية عام ٧٠٤ هـ- ١٣٠٤م[٤]. و كانت تلك المراسلات بداية أول صفحة في تاريخ العلاقات بين المغرب المريني والمماليك في مصر.

لقد استمرت قوافل الحجاج المغاربة دون توقف بعد إن وفر لها الأمن والاستقرار عبر أراضي المغرب الأوسط والادني ففي ربيع سنة ٧٠٤ هـ- ١٣٠٤ م ذهبت إلى الأراضي الحجازية قافلة أخرى، وكان تحت إمرة أبو زيد الغفاري[٥] وقد أثارت هاتين القافلتين إلى الأراضي الحجازية اهتمام شرفاء مكة حيث فهموا من خلال تلك القوافل المحملة بالهدايا والمنظم في رحلته بان بني مرين احكموا قبضتهم على تلك البلاد بين المشرق والمغرب، وهو ما جعل بعض شرفاء مكة من الاحتماء بهم واتخذهم ملاذاً، عندما شعروا بسطوة سلطان مصر المملوكي، وهنا نسمعوا عن عودة الشريف لبيده بن أبا نمى مع قافلة الحج الأولى، وتشير المصادر إلى أن سلطان مصر المملوكي كان قد قبض على أخويه حميضه ورميثة بعد وفاة أبيهم أبا نمى صاحب مكة سنة ٧٠١ هـ-١٣٠١م.

لقد عاد هذا الشريف مع القافلة سنة ٧٠٤هـ-١٣٠٤م وبالغ السلطان أبو يعقوب يوسف في إكرامه وخصص له فرقة لمرافقته لتجول في مدن المغرب وأقاليمها والوقوف على معالمها التاريخية والحضارية وظل ذلك الشريف مقيماً في حماية البلاط المريني حتى عاد إلى المشرق سنة ٧٠٥هـ-١٣٠٥ م[٦]

وفي نفس العام الذي كان قد غادر فيه أخوهم لبيده بلاد المغرب استطاع أشراف مكة آن يرسلوا ببيعتهم إلى السلطان أبي يعقوب يوسف و كان هذا الخطاب قد جاء به أبي زيد الغفاري الذي كان دليلا لقافلة الحجيج المغربي الثانية و خاصة عندما ساءت العلاقات بينهم وبين صاحب مصر السلطان الناصر محمد قلاوون.[٧]

لقد جاء دليل القافلة أبي زيد حاملاً معه خطاب البيعة مع ثوبا من كسوة الكعبة الشريفة للسلطان المريني أبي يعقوب حيث كان السلطان قد "شغف به و اتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركا به"[٨].

لم توثر العلاقات بين إشراف مكة وبني مرين على العلاقات السياسية بين بني مرين و مماليك مصر فقد بعث سلطان مصر قلاوون بهدية عظيمة إلى أبي يعقوب و كانت الهدية من طُرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله من نوع الفيل و الزرافة وأوفد بها من عظماء دولته[٩] الأمير البليلي وقد وصلت الهدية إلى مدينة المنصور بتلمسان سنة ٧٠٦-١٣٠٦م وقد استقبل السلطان أبي يعقوب الوفد استقبالاً عظيماً تليق بالضيف العزيز وأرسل الوفد إلى مدن المغرب الاقصى للإطلاع على المعالم الحضارية للدولة و أثارها[١٠].

وفي أثناء هذه الزيارة كان السلطان يعقوب قد وفته المنية وتولي بعده السلطان أبو ثابت المريني لمتابعة إكرام سفارة الوفد المصـــري و قدم لأعضائه عند رجوعهم هدايا ثمينة دعماً للعلاقات بين البلدين.

و تحرك الوفد المصري بعد إتمام الزيارة عائد إلى مصر في ذي الحجة سنة ٧٠٧هـــ -١٣٠٨ م وكان ذلك الوفد قد تعرض بالقرب من منطقة بن حسن لسطو الإعراب على القافلة ونهبوا ما معها من أمـــوال وهدايا[١١] وقد كان لهذه الحادثة المؤسفة أثارها السلبية على العلاقـــات بين البلدين إذ مرت العلاقات بمرحلة فتور فلم يعاودوا سلاطين مصـــر بعدها إرسال سفارة إلى المغرب، وقد أشارت أصابع الاتهام فـــي تلـــك الحادثة إلى بني عبد الواد أعداء بني مرين لتعكير صفو العلاقات بـــين سلاطين مصر و بني مرين[١٢].

لقد أرسل سلطان مصر الناصر بن محمد قلاوون برسالة شـــجب إلى سلطان بني مرين يعاتب فيها عن ما أصاب القافلة المصـــرية فـــي بلاد المغرب و أرفقها بهدية كان سلطان المغرب قد شعر بعدم جـــذوة الهدية وكانت عبارة عن كوبين من دهن البيلسان وخمسة مماليك مـــن الترك رماة بخمس أقواس من قسئ الغز الموثقة الصنعة، وقد أغضبت الهدية سلطان المغرب ابوثابت المريني واستدعى قاضيه محمد بن هديه وأملى عليه خطاباً شديد اللهجة كان موجهاً إلى سلطان مصر، و قد جاء في الخطاب على لسان سلطان المغرب إلى كاتبه محمد هديـــه "اكتـــب ألان إلى الملك الناصر كما أقول لك و لاتحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب و قل له عن شأن الرسل ما أصابهم فـــي طريقهم فقد حضروا عندي و أريتهم مخاوف بلادنا و ما فيه من غوائل

الإعراب فكان جوابهم إن جئنا من عند ملك المغـرب فكيـف نخـاف مغترين بشأنهم يحسبون ان إمره نافذ في إعراب فلاتنا وإما الهدية فترد عليك إما دهن البيلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا بـه دهنا و إما المماليك الرماة فقد فتحنا بهم اشبيلية وصرفانهم إليك لتفـتح بهم بغداد والسلام"(١٣).

ويبدو من خلال الرسالة بأن صاحب تلك الرسالة هو السلطان أبو ثابت المريني حيث أن وفد السفارة المصرية كان قـد غـادر الـبلاد المغربية في عهده، وعلى كل حال فان تلك الرسالة أو الخطاب كان له أثراً سيئاً في استمرار العلائق السياسية بين البلـدين، فقـد أدت تلـك الحادثة إلى قطيعة استمرت لسنوات(١٤) حتى عهد السلطان أبي الحسن المريني حيث استأنفت العلاقات من جديد ودخلت مرحلة جديـدة مـن جسور الود والإخوة.

لقد كان أولى اهتمامات أبي الحسن المريني هـو إعـادة مكانـة الدولة المرينية بين إنحاء العالم الإسلامي وخاصة مصر وديار المشرق وكان هدف استيلاء أبي الحسن على المغرب الأوسط وبسط نفوذه عليه من جديد لضمان انفتاح دولته على بقية أجزاء العالم الإسلامي، وبمجرد إن سيطرة أبي الحسن على بلاد المغرب الأوسط حتى بعـث بسـفيره فارس بن ميمون بن وزدار ليخبرهم بما تم له من فتح واستقرار الأمن ببلاد المغرب الأوسط وزوال المخاطر التي كانـت تعتـرض قوافـل الحجيج المغربي، وقد استقبلت هذه السفارة من طرف سـلطان مصـر استقبالاً يليق بالضيف العزيز رد على أثرها سلطان مصـر بكتـاب سلطاني يقر تجديد علائق الود والإخوة بين البلدين(١٥) وفي إطار علاقة

بني مرين بالحرم المكي الشريف، فقد قرر السلطان أبي الحسن إن يقوم بكتابة نسخة من المصحف الكريم بخط يده و لما أكمل نسخها "جمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها وصنع لها وعاء مؤلفاً من الأبنوس و العاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجواهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها[١٦].

لقد خرجت قافلة الحجيج التي تحمل نسخة المصحف الشريف من مدينة تلمسان عام ٧٣٨هـ-١٣٣٧م، وكان السلطان قد أوفد معها عدد من كبار المسئولين في دولته وخواص مجلسه نذكر منهم عريف بن يحي من عرب بني هلال و أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزغة ببابه وصاحب دولته بن قاسم المزوار.

و كان عادة سلاطين المغرب أن يرسلوا مع قوافل الحجيج الهدايا الثمينة فقد أرسل أبي الحسن مع ذلك الوفد هدية كبيرة كانت معجزة عظيمة في المغرب [١٧] والمشرق وقد وقف ابن خلدون بنفسه على مرسوم الهدية بخط كاتب السلطان أبي الفضل بن محمد بن أبي مدين حيث احتوت الهدية على "خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصاً ومغشي وموجاً... وخمسمائة حمل من متاع المغرب و ماعونه وأسلحته و من نسج الصوف المحكم و ثياباً واكسيه وبرانس وعمائم وأزر معلمه وغير معلمه ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً و غير ملون، ومن الدرق المجلوبة من بلاد

الصحراء المحكمة بالرباع المعارف وتنسب إلى اللمط... وما يستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت[١٨].

وقد وصل الركب محمل بالهدايا في شهر رمضان سنة ٧٣٨هـ-١٣٣٨م برفقة الحرة مريم التي كانت حضية من حضايا والد السلطان أبي الحسن، وقد تم إنزال الهدايا التي بعث بها السلطان المريني وقد أمر السلطان الناصر محمد قلاوون المهندار باستقبال ركب الحاج المغربي و أنزلهم بالقرب من مسجد الفتح وكان يوم ظهور الهدية المرينيه يوماً مشهوداً، حيث قام السلطان بتفريق الهدايا على كافة الأمراء كل قدر مرتبته حتى نفذت كلها عدا الجوهرة واللؤلو اختص به الناصر نفسه.[١٩]

لقد احتفل ملوك مصر بوصول الركب وخصص مكان لضيافة الحرة مريم ومن معها وصرفت عليهم الرواتب "من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم فكان برتبهم من كل يوم ثلاثين رأساً من الغنم و نصف إردب أرز وقنطار حب رمان وربع قنطار سكر وثماني فانوسيات من الشمع و توابل الطعام وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة و سبعين ألف درهم"[٢٠]. وعندما استعدت الحرة مريم للسفر أمر سلطان مصر وزيره أن يجهز لها ما تحتاجه في سفرها من أطباق الحلوى والدقيق والسكر وغيرها، كما أمر السلطان متولي الجيزة بأن يرحل بها في ركب لمفردها ويمتثل لكل ما تأمره به وأرفق الركب بخطاب إلى أميري مكة و المدينة من اجل خدمتها و رعايتها[٢١].

لقد وثق سلاطين مصر علاقتهم بالمغرب الاقصي و شعروا بالثقة المتبادلة وجسور المحبة بين الدولتين وبعد إن أكمل ركب الحاج فرائض الحج وعاد راجعاً كان السلطان الناصر قد جهز هدية للسلطان أبي الحسن المريني كانت تتكون من "ثياب صنعت في الإسكندرية بديعة النسج مرقومة بالذهب وفساطيط غريبة الشكل و الصنعه وخيمة مصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب مبطنة من الداخل بالحرير العراقي وصوان مربع الشكل مصنوع من الحديد وعشرة جياد بسروج ولجم ملوكيه مصنوعة من الذهب والفضة ومرصعة باللائي"[٢٢].

استمرت العلاقات مع المشرق حيث كتب أبي الحسن نسخة أخرى من المصحف الشريف ووضعها على الحرم المدني في المدينة المنورة و كان قد بعثها مع رجال دولته سنة ٧٤٠هـ-١٣٣٩م وقد استمرت علاقات الأخوة قائمة حتى وفاة الناصر سنة ٧٤٠هـ-١٣٤٠م حيث ضعفت العلاقات السياسية بين البلدين أثر بعض الفتن الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة و ضعف بسبب ذلك طريق أمن الحج لسنوات، وسرعان ما استقرت الأوضاع بعد تولي الأمور[٢٣] في يد الصالح أبي الفداء إسماعيل عام ٧٤٣هـ-١٣٤٢ م واستطاع هذا الأخير أن يعيد الأمور على ما كانت عليه وأمن طريق الحج، وقد بعث على أثرها سلطان المغرب أبي الحسن كاتبه وصاحب الخراج في دولته أبي الفضل بن عبد الله بن أبي مرين يحمل معه رسالة لتقديم العزاء في وفاة الناصر رفقة الحرة مريم التي كانت بمثابة والدها أبي الحسن و كان ذلك من منتصف شعبان سنة ٧٤٥ هـ-١٣٤٤م و قد نجح ذلك الوزير تلك المهمة و استطاع أن يظهر في أدائها أبهة سلطان المغرب أبي

الحسن حيث فرق العطايا على المستضعفين من الحجاج في طريقه وما قدمه من تحف إلى رجال الدولة المملوكية.(٢٤)

مثلما شهدت العلاقات بين البلدين تواصل جسور الود فقد شهدت في أواخر عهد أبي الحسن فتوراً في العلاقات فعندما طلب أبي الحسن من السلطان المملوكي في حسن بن الناصر قلاوون بالقبض على الوزير الحفصي ابن تافرجين و تسليمه إلى البلاط المريني فقوبلت تلك الدعوى بالرفض من طرف السلطات المصرية حيث أن ذلك الوزير كان يمثل المقاومة ضد الوجود المريني في إفريقيا وكان في حماية بعض أمراء المماليك الاقوياء في البلاط المملوكي(٢٥).

لقد لعبت قوافل الحجيج المغربي إلى جانب العلاقات السياسية و الدينية دوراً هاماً في تدعيم العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب ومصر والمشرق من خلال قوافل الحاج التي كانت تنقل معها البضائع المغربية إلى الأسواق المصرية وكذلك عند عودة الحجاج المغاربة يشترون معهم السلع المصرية ويوزعوها في الأسواق المرينية في أوقات محددة في كل عام، وقد ساعد ذلك على تنشيط الصناعات المغربية المختلفة التي كانت القوافل تحملها معها كهدايا من البلاط المريني.

وقد اشتهرت المغرب بالخيول التي كان ملوك مصر شغوفين بها حيث بعث السلطان برقوق برسالة وهداياه إلى سلطان فاس أبي سالم المريني لغرض شراء خيول المغرب المنتقاة (٢٦).

وفيما يتعلق بالعلاقات الثقافية فقد كان الرحالة و العلماء المغاربة يهتمون بتاريخ المشرق فمنهم من قام بوصف الأماكن التي زارها ومنهم من غذوا أنفسهم بعلوم المشرق، فابن بطوطة الذي زار المشرق في عهد الدولة المرينية قد أهتم بتاريخ بلاد الحجاز حيث تحدث عن العادات والأفعال الحسنة لأهل مكة حيث وصفا ناسها بأنها من الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإحسان إلى الضعفاء والمستضعفين وحسن الجوار للغرباء ويضيف ابن بطوطة بقوله... بأنه من صنع احدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء المستضعفين المجاورين وذكر بان أماكن تواجد احدهم يكون بالأفران حيث يطبخ هناك أهل مكة أخبازهم... فإذا طبخ احدهم خبزة واحتملها إلى منزله يتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له و لا يرجعهم خائبين ولو كان عنده خبزة واحدة فكان يعطي ثلثها أو نصفه عن طيب نفس من غير ضجر.[٢٧] ومن عاداتهم الحميدة اعتناءهم بالأيتام ومساعدتهم على تعلم طرق الكسب الحلال... كما أشار ابن بطوطة إلى كثرة استعمال أهل مكة للطيب و الكحل و السواك ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال يتميزن بالتهذيب و العفة يشركن الرجال في حبهن للطيب لدرجة استبداله بالقوت والطعام[٢٨]، وقد كان ذلك وصف مختصر عن اهتمام الرحالة المغاربة بتاريخ الحجاز.

أما علماء الدولة المرينية فكانوا يرحلون إلى بلاد المشرق من أجل أن يزودوا أنفسهم بعلوم المشرق وقد رحل العديد من العلماء والأدباء إلى مصر وبلاد المشرق العربي في الشام والعراق والجزيرة العربية و كان من الذين رحلوا عبد الله المريني الذي وصل إلى

الإسكندرية واستقر بها واتصل بإقرانه من العلماء أمثال أبي العباس القرطبي و محمد بن برطلة و غيره ونهل عبد الله من العلم وأصبح مثال أقرانه مصدر من مصادر الحديث كما انه هناك من العلماء الذين قرؤا على الشيخ عبد الله المريني مثل جمال الدين أبو عبد الله بن تومر الزواوي الذي كان قاضياً بدمشق وتوفي بها عام ٧١٧هـ-١٣١٧م[٢٩]، و من علماء المغرب الذين زاروا مصر في العصر المريني نذكر منهم المقري الجد الذي كان من ابرز علماء المغرب حيث وصف أثناء زيارته للقاهرة بأبلغ الوصف حيث قال "فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام و كرسي الملك يلوح القصور والاواوين في أوجه وتزهو الخوانق والمدارس بأفاقه وتضئ البدور الكواكب من علمائه.[٣٠]

و من العلماء الذين نهلوا من العلم لدى علماء مصر عبد الله بن مرزوق الخطيب الذي قراء على عدد غير قليل من العلماء و قد أحصاهم المقري في نفخ الطيب بما يقارب من أربعين عالماً ولم يترك ابن مرزوق فقيهاً أو عالماً إلا و نهل منه العلوم وتعلم منه و قراء عليه حتى انه التقي بالشيخه فاطمة بنت محمد الفيومي البكري التي ورد ذكرها عند المقري[٣١] نقلا عن كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة بأنها كانت ست الفقهاء.

و مثلما رحل علماء المغرب إلى المشرق فانه جاء إلى فاس بعض علماء المشرق العربي نذكر منهم على سبيل المثال محمد الهادي بن أبي القاسم بن نفيس الشريف وهو جد الشرفاء العراقيين بفاس و كان ذلك الشريف قد عرف عنه بأنه عالماً وأديباً معروف لدى الخاصة

والعامة من ملوك زمانه، وقد استضاف السلطان المريني أبو سعيد عثمان العالم العراقي الجليل ورحب به وأكرمه وأجزل صلته[٣٢]، كما توافد عدد كبير من الفقهاء والعلماء والأدباء على السلطان أبي الحسن المريني من بلاد الحجاز و اليمن والعراق فأوسع لهم العطاء الجزيل و أولاهم من فضله بالجميل.[٣٣]

لقد توافد العديد من العلماء والإشراف على فاس لما عرف عن اهتمام ملوك بني مرين بدور العلم و العلماء فقد توافد من آهل مكة أولاد عميرة الحسنيين و من المدينة المنورة قدم أولاد حجاز المدنيين والحسنيين و أعداد كبيرة لاتحصى من شرفاء الحلة وشرفاء العراق كما توافد عدد من فقهاء مكة منهم أبو عبد الله بن عبد المعافي وأولاده و من المدينة المنورة أيضا إلى فاس وفد أعداد كبيرة لا تحصى، لقد كان لشهرة أبي الحسن المريني أن أصبحت فاس محل أنظار المشرق الإسلامي لما عرف به البلاط المريني من عطاء وكرم وتشجيع للعلماء والعلوم، وقد وفد على أبي الحسن عدد كبير من الشام ومصر والعراق وبلاد العجم طوايف فلا ينصرف عنه منصرف إلا قد نال منه فوق ما أمله"[٣٤].

وفي الآونة الأخيرة للدولة المرينية لم تشهد العلاقات بين بني مرين و مصر والمشرق العربي مثلما كانت عليه في السابق وإن سكتت بعض المصادر عن تلك العلاقات فان هناك رسالة نقلها مؤرخ المماليك القلقشندي و هي عبارة عن رسائل متبادلة بين السلطان المريني عثمان بن أبي العباس والسلطان فرج بن أبي السعيد برقوق مؤرخة في شعبان ٨٠٤هـ- ١٤٠٢م و فيها يتحدث السلطان المريني في رسالته "و كتبنا

هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تحدث به السمار"[٣٥] وفي نهاية الخطاب يؤكد السلطان عثمان على تقديم المساعدات المؤن والمساعدات العسكرية لمصر ضد غزو التتار حيث يقول عزمنا على أن نمدكم من عسكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء وتجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضي"[٣٦].

ويظهر من خلال الرسائل بأن بني مرين كانوا يقفون موقف المترقب على سلطنة المماليك في مصر وأنهم كانوا يتابعون الجبهة المصرية أول بأول عندما داهم التتار المشرق العربي أيام تيمورلنك ٨٠١هـ-١٤٠١م و كان سلطان مصر قد بعث على اثر ذلك رسالة يشرح فيها الظروف والملابسات السياسية التي جرت داخل البلاط الملكي و هي التي جعلته ينسحب من دمشق و يعود إلى مصر. [٣٧]

أما عن علاقات المغرب المريني مع بلاد فارس فقد زار الرحالة ابن بطوطة المغربي تلك البلاد في عهد الدولة المرينية وتعتبر المعلومات التي قدمها تلك الرحالة أجمل ما كتب عن تلك الديار حيث ذكر فيها معلومات قيمة عن مدينة أصفهان وشيراز ونيسابور و غيرها من مدن بلاد فارس وقد أعطى وصفا مدققا عن طبيعتها ومناخها ومعالمها الأثرية... وفواكهها وأعنابها... و عن كرم البلاد وشهامة أهلها.

لقد قدم ابن بطوطة وصفاً للعاهل المغربي آنذاك عن النهضة العلمية و الثقافية حيث أشار إلى أن النهضة الثقافية كانت قد تجاوزت الرجال إلى النساء حيث كان النساء في بلاد فارس يجتمعن لتناول العلم والدرس كل يوم اثنين و خميس بالمسجد الأعظم، كما عُرف ابن بطوطة أهل المغرب بتلك البقاع و أمرائها فكان يعطي صوره مدققة وصادقة عن بلاد المغرب.

لقد زار مدينة نيسابور العظيمة التي كانت تضم مئات الطلاب عند زيارة ابن بطوطة وفي الوقت الذي يزور فيه المراكز العلمية هناك كان يقارن بينها وبين مدارس فاس بالمغرب [٣٨].

وقد استطاع ابن بطوطة أن ينال إعجاب رجال العلم في أصفهان وتقديرهم فمن أكبر مآثر يمكن أن يعتز بها المغرب أن يخلع رداء على الرحالة المغربي ابن بطوطة، فقد خلع الإمام قطب الدين حسين بن شمس الدين كساءه وخلعه على ابن بطوطة و قد تم هذا في يوم مشهود في ١٤ جمادي الثانية ٧٢٧ هـ-١٣٢٧م ولم يكن ذلك الرداء من نوع الملابس العادية و لكنه ظل يتوارث بطريق الخلع التشريفي عالم عن عالم.[٣٩]

وفيما يتعلق بالعلاقات مع ارض عُمان الذي كان يعني في فترات من التاريخ طول المساحة التي تستوعب جنوب الخليج اليوم، و الظاهرة الفريدة التي يمكن أن نلاحظها في سائر المؤلفات المغربية القديمة هي وحدة المشاعر و ائتلاف النوازع فالرحالة المغربي ابن بطوطة و هو يقوم بزيارة إلى أرض عمان على الطريق المقابل لشرق أفريقيا لقد شعر و هو في ظفار في أقصى الجناح الشرقي من العالم العربي بشبه

قوي بين أهلها وأهل المغرب و هي حقيقة تجعلنا نقف طويلا عما رواه المؤرخون عن أصول صنهاجة المحرفة إلى السنغال وعن أهلهم من حمير على حد تعبير ابن بطوطة وقد قوي من انطباع الرحالة المغربي انه لاحظ وهو في ضيافة خطيب المسجد الأعظم عيسى بن علي أن أسماء جواريه أيضا مستعملة في غرب أفريقيا و لاحظ أن أهل ظفار تتملكهم عادات و خصائص لا تختلف عن العادات والخصائص المغربية(٤٠).

إن تلك الرواية من ابن بطوطة لا ينبغي أن تؤخذ على إنها مجرد اختراق ولكنها إفادة تاريخية هامة جعلت الباحثين الغربيين يحاولون دائما تمييع الصلة بين أفريقيا و العالم العربي وعندما تتحدث عن وحدة المشاعر والتضامن الأخوي فهنا نقف على أرجوزة الملاح العربي الشهير احمد ابن ماجد السعدي الذي تحسر عن سقوط عدد من المدن المغربية بأيدي البرتغاليين في أواخر الدولة المرينية، وفي الوقت نفسه وبعد أكثر من قرن يرد الشاعر المغربي أبو فارس عبد العزيز القشتالي الأديب والمؤرخ و الوزير على عهد الدولة السعدية ويهني ذرية ابن ماجد بانتصار المغرب السعدي في معركة وادي المخازن الشهيرة التي جعلت البرتغاليين تتداعى قوتها في المشرق العربي الإسلامي حيث **يقول:**

**فكم هنأت أرض الفرات بك العلا و وافت بك البشرى ارض عُمان(٤١)**

لقد تميزت علاقات المغرب بالمشرق الإسلامي بطابع خاص وهو تدوين الرحالة المغاربة في مذكراتهم عن أحوال البلاد والمدن التي قاموا بزيارتها فكما زار ابن بطوطة في عهد المرنيين الحجاز وفارس وعمان وشرق أفريقيا وغيرها نسمع عنه يواصل زيارته إلى بقية بلاد المشرق حيث وصل إلى أرخبيل مالديف بآسيا القريبه من سيلان حيث اعتنق أهله الإسلام وقد أعجب ابن بطوطة بسلوك أهل البلاد وإذعانهم للتقي والتجائهم إلى الله وتسلحهم بالدعاء.

وقد اجتمع بعدد من الثقات في جزر المالديف[٤٢] كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة أخرى وحدثوه عن بدء الإسلام في هذه الديار، وإن إسلام هذه البلاد أو الجزر كان على يد مغربي يسمى أبا البركات البربري المغربي الذي كان حافظ للقران العظيم، ويضيف الرحالة ابن بطوطة ".. إلى هذا العهد فإنهم يعظمون المغاربة بسبب أبا البركات وقد سمو مسجد بالجزيرة معروفاً باسمه قرأت يقول ابن بطوطة على مصورة الجامع منقوشا في الخشب "أسلم السلطان احمد شيورازه على يد أبا البركات البربري المغربي ".

وقد جعل ذالك السلطان على ما يقول ابن بطوطة بأن جبايات تلك الجزر وقفاً على المسافرين الغرباء حيث إن إسلامه كان بسببهم[٤٣].

وخلاصة القول إن العلاقات بين بني مرين في المغرب والمشرق الإسلامي قد مرت بعلاقات سياسية وثقافية وكانت قوافل الحجيج المغربي والمرسلات السياسية ورحلة العلماء بين المشرق والمغرب هي محور ربط العلاقات بين هذه الديار وتلك الديار.

وماهو جدير بالذكر خلال تلك العلاقات إن الرحالة المغاربة كانوا قد دونوا في رحلاتهم أحوال البلاد والمدن التي زاروها في المشرق الإسلامي وغيرها من مناطق شرق أسيا إن الدارس لهذه الفترة سوف يكتشف بين طيات هذه الكتب وتلك الرحلات معلومات جديدة عن تلك الديار وعن عدد من العلماء والأدباء الذين رحلوا إلى المشرق والذين جاءوا إلى المغرب ونذكر على سبيل المثال جد الشرفاء العراقيين بفاس محمد بن الهادي بن أبا القاسم بن نفيس الشريف.

# المصـــــادر والمراجـــــع


١. احمد الناصري، الاستقصاء، ج٢، الدار البيضاء ١٩٥٤، ص ١٠ – الأخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٢٠، ص٧١ – محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني دار القلم الكويت طبعة ثانية ١٩٨٧، ص٢١٠-٢١٣.

٢. ابن خلدون، العبر المطبعة المصـــرية بـــولاق، ج ٧، ص ٢٢٦-٢٢٧.- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك نشر محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٧١، ص٩.

٣. ابن خلدون، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٢٦.

٤. المقريزي، مصدر سابق نفس الصفحة- عيسي الحريري، مرجـــع سابق، ص ٢٠٤.

٥. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٦٦.

٦. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٢٦. انظر ابن خلدون العبر، ج ٧ دار الكتاب بيروت١٩٦١، ص ٤٧٠-٥٠٢ -٥٥٣.

٧. ابن خلدون، العبر طبعة بولاق، ص ٢٢٦.

٨. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٢.

٩. ابن خلدون، نفس المصدر نفس الصفحة.

١٠. جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر- دار الفكر العربي ١٩٤٧، ص ١٤٢ -١٤٣.

١١. ابن خلدون، طبعة بولاق، ص ٢٢٧ ــ جمال سرور، نفس المرجع، ص ١٤٣.

١٢. ابن خلدون، نفس المصدر نفس الصفحة.

١٣. ابن خلدون، نفس المصدر، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨.

١٤. محمد المنوني، علاقات المغرب بالمشرق أيام السلطان أبا الحسن المريني مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ــ تطوان العدد الأول ١٩٥٦، ص ١٠٩ -١١٠.

١٥. الناصر، الاستقصاء، ج ٢، ص ٦١ - ٦٢.

١٦. احمد القلقشندي، صبح الاعشي، ج ٧، الطبعة الأميرية القاهرة ١٩١٥، ص ٣٩٥، ج ٨، ص ١٠٢.

١٧. عيسي الحريري، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

١٨. ابن خلدون، ج ٧، ص ٢٦٥ ــ عيسي الحريري، ص ٢٠٧.

١٩. المقريزي، مصدر سابق، ج ٢، السنة الثانية، ص ٤٤٧. المقري تفح الطيب، ج٤، دار صادر بيروت ١٩٦٨، ص ٤٠٢.

٢٠. الناصري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣-٦٤. -المقريزي، ج ٢، ص ٤٤٨.

٢١. المقريزي، ج ٢ القسم الثاني، ص ٤٤٩ــ الناصري السلاوي، الاستقصاء، ج ٢، ص ٦٣ ــ ٦٤.

٢٢. أبي المحاسن ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، دار الكتب المصرية، ج٩، ص١٣٩ -١٤٠.

٢٣. الناصري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٤ - ٦٥. -محمد المنوني، مرجع سابق، ص ١٣١.

٢٤. الناصري، ج ٢، ص ٦٧ ــ ٦٨ ــ محمد المنوني، نفس المرجع نفس الصفحة.

٢٥. الناصري، ج ٢، ص ٧٤ ــ ٧٥ ــ محمد المنوني، مرجع سابق، ص ١٤٩ ــ ١٥١.

٢٦. الناصري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٤٠. ــ عيسي الحريري، ص ٢٠٩.

٢٧. ابن بطوطة، تحفة النظار، دار بيروت ١٩٨٥، ص ١٣٧.-عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية الأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين، الرياض ١٩٩٦، ص ٢١٠-٢١١.

٢٨. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ١٣٧. ــ عواطف نواب، مرجع سابق، ص ٢١١.

٢٩. المقريزي، ج ٢ القسم الأول، ص ١٧٨ ــ ١٨٠.

٣٠. المقري، نفح الطيب، ج ٥ دار صادر بيروت ١٩٦٨، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

٣١. المقري، ج ٥، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٥. ــ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، طبعة أولى، القاهرة ١٩٣١، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

٣٢. عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ٢١٠.

٣٣. عيسى الحريري، نفس المرجع نفس الصفحة.

٣٤. ابن مرزوق، المسند الصحيح، تحقيق ماري خيسيوس، نشر الشركة العامة للتوزيع الجزائر ١٩٨١، ص٣٥٥ -٣٨٥. عيسي الحريري، ص ٢١٠.

٣٥. القلقشندي، مصدر سابق، ج ٨، ص ١٠٦.

٣٦. القلقشندي، ج ٨، ص ١٠٥.

٣٧. القلقشندي، ج ٧، ص ٤٠٧ ــ ٤١٠.

٣٨. عيسى الحريري، ص ٢١١. عبد الهادي التازي، العلاقات المغربية الإيرانية عبر التاريخ، مجلة البحث العلمي، مطبعة الرسالة عدد السادس الرباط ١٩٨٠، ص ١٧.

٣٩. عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص ١٧.

٤٠. عبد الهادي التازي، المغرب في خدمة التقارب العربي الأفريقي مجلة دعوة الحق عدد ٢٦٩ مطبعة فضالة المحمدية ١٩٨٨، ص ١٣٦.

٤١. عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص ١٣٩.

٤٢. عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية منذ أقدم العصور إلى اليوم طبعة فضالة المحمدية طبعة أولي ١٩٨٧، ص ٣١٦.

٤٣. عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص ٣١٧.

## وصول الإسلام إلي غرب أفريقيا وأثره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطي

منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها الإسلام إلي بلاد الشمال الأفريقي بدا الإسلام يتسرب بالتدريج إلي غرب أفريقيا ، حيث توغل الفاتح الإسلامي عقبه ابن نافع الفهري في حملته الأولي حتى وصل إلي ساحل المحيط الأطلسي وسار موسي بن نصير على نفس الطريق فامتد الإسلام صوب الغرب وتوجه الإسلام كذلك جنوبا حتى وصل إلي قلب أفريقيا ،فكان ذلك أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب الأقصى وأقاليم غرب أفريقيا [١] وقد عبر المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان بقوله " وما أتتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أو المعاملات" [٢] ويشير ابن عذاري إلي إن عقبه ابن نافع انحدر في حملته الثانية إلي بلاد السودان من جهة المغرب الأقصى ووصل إلي غانا عن طريق ودان وبني بها مسجدا ، ولابد إن تلك الحملة قد استقر منها [٣] عددا لا باس به من العرب المسلمين لتعليم الناس الدين الإسلامي ،وتشير المصادر إلي أن أشراف قدموا من الشرق ينتسبون إلي نفس الأسرة الإدريسية التي حكمت المغرب عام ٧٨٨ م وان هؤلاء الأشراف كانوا قد سعوا إلي جانب أمر الدعوة والإصلاح إلي تأسيس مملكة بالسودان وكونوا أحياء خاصة بهم ،حيث تشير النصوص التاريخية إلي إن موسي بن عبد الله بن حسين المثنى قد ثار على الخليفة أبى جعفر المنصور وذاق هو وأبناء عمومته أدارسة المغرب والأندلس واليمامة الأمرين في بلاد الحجاز، وبعد موت موسي تولي ابنه إسماعيل وأشعل ثورة في غرب الجزيرة العربية ونصب

نفسه ملكا على مكة والحجاز واليمامة ثم تولي أخوه محمد اخيضر وهو الذي بعث حفيده صالح بن يوسف إلي بلاد السودان من المغرب الاقصى وبقي عقب الادارسة معروفا[٤] ،وقد نالوا هؤلاء الادارسة تأييد الغانيين حيث نقل الغانيون عاصمتهم من ضفة نهر النيجر إلي مدينة كومبي صالح التي قام بتأسيسها الادارسة[٥] .

وفيما يتعلق بوصول الإسلام إلي كانم برنو فإن الاتصال المباشر بين كانم برنو وشمال أفريقيا قد بدأ مع بداية دخول الإسلام إلي منطقة السودان الأوسط وأول وجود للمسلمين في برنو يرجع إلي حوالي ٤٦ هـ السابع الميلادي، وهي السنة التي بدأت فيها الطلائع الإسلامية الأولى إلي إقليم كوار بقيادة عقبه ابن نافع الفهري بعد إن مر بمنطقة زويلة بفزان وكان الطريق معروف منذ القدم يستعمل لإغراض تجارية [٦] منذ عهد القرطاجيين والرومان . وعلى أي حال فإن الطريق التي سلكه عقبة بن نافع ورجاله كان يربط كانم بساحل طرابلس مباشرة ، وانه كان يمثل مضيق يتدفق من خلاله التأثير الإسلامي المبكر إلي بلاد برنو وإلي أقاليم أخري بالسودان الأوسط [٧] ،وكان سكان كانم بحكم الموقع الجغرافي الذي يسكنون فيه قد ساعد على الاتصال المباشر بالمسلمين في الشمال الأفريقي ،وقد بدا وصول الإسلام إلي هذه المناطق سلمياً بواسطة التجار والفقهاء والدعاة ، وكان لاستقرار بعض الجاليات الإسلامية من وقت مبكر أثره في نشر الإسلام بحكم صلتها بالتجارة الخارجية ، وفي مثل هذه الحالات اعتنقت الأسرة الحاكمة في كانم الدين الإسلامي وان إسلام هؤلاء الحكام يرجع إلي اتصالاتهم

بالتجار من الشمال الأفريقي ، وكان من نتائج إسلام ملـوك كـانم إن أصبحت لديهم لغة كتابية هي اللغة العربية[٨].

وتشير المصادر إلي إن إسلام كانم برنو يرجع إلي ما قبل القرن التاسع الميلادي ويشير في ذلك الرحالة اليعقوبي على انه فـي أواخـر القرن العاشر الميلادي إن سكان كوار التي دخل الإسلام عن طـريقهم كانوا مسلمون من عدة قبائل[٩] .

إلي جانب وصول الفاتحين إلي تلك المناطق من السودان الأوسط والسودان الغربي فقد كانت قوافل التجار هي الاخري تأتي من شـمال أفريقيا ،حيث إن الثروة والشهرة التي عرفت بها غانا قد جعلت العديـد من القوافل التجارية تأتي منذ مرحلة مبكرة ، ويبدأ إن أولئـك التجـار المسلمين الذين جاءوا محملين بالبضائع كانوا من الكثرة حتى استطاعوا أن يؤسسوا لأنفسهم أحياء خاصة بهم قرب عاصمة غانا كومبي صالح ،واستطاع المسلمين أن يؤسسوا مراكز تجارية حتـى داخـل الأحيـاء الوثنية ،مم سهل انتشار الإسلام بين الجماعات المحليـة [١٠] ،ويشـير القلقشندي إلي أن أهل غانه اسلموا في بداية الفتح [١١]، وكان احد ملوك غانا قد اسلم في القرن التاسع الميلادي وهو تلوتان بن تكلان سنة ٨٣٧ م ،وتشير الروايات على انه شن حرب ضد الممالك الوثنية المجاورة له من اجل نشر الإسلام [١٢] ، وهذا دليل على إن الإسلام انتشر تـدريجياً قبل وصول المرابطين إلي تلك المناطق ولاشك إن لهـذه التحركـات الإسلامية تأثيراً نسبياً في التعريف بالإسلام في تلك المناطق منذ زمـن مبكر .

لقد حمل التجار من المسلمين العرب والأفريقيين إلي غرب أفريقيا و وسطها معالم الحضارة الإسلامية المتمثلة في أنماط الحياة الجديدة في ميادين التعليم والفنون والزراعة والصناعات اليدوية والمهارات والطب [١٣]... وغيرها . ويبدو إن معظم الفقهاء والتجار المسلمين كانوا من إتباع المذهب الإباضي حيث نشط المذهب الإباضي عام ١٦٠ هـ ٧٧٧ م اثر انسحاب الجيش العباسي من المغرب الادني والأوسط ، إذ استطاع عبد الرحمن ابن رستم إن يؤسس الدولة الرستمية في جنوب الجزائر واتخذ مدينة تاهرت عاصمة لدولته ،وقد شملت ذلك الدولة مساحة واسعة من المغرب الادني والأوسط أي معظم أراضي الجزائر وجنوب تونس وغرب وجنوب ليبيا حتى مشارف نهر النيجر والسنغال [١٤] ، وبذلك كانت تلك الدولة قد سيطرت على مناطق إستراتيجية تمر بها القوافل التجارية بين دول البحر المتوسط ووسط وغرب أفريقيا الغنية بموارد الذهب والعاج وريش النعام والجلود وغيرها من البضائع، مما أدي إلي ازدهار الدولة وزيادة أهميتها الاقتصادية [١٥] .

لقد كان تجار الدولة الرستمية وغيرهم من بقية دول المغرب العربي الإسلامي يدخلون في مناقشات دينية وعقائدية مع السكان المحليين في غرب أفريقيا فكان للتجار دوراً هاماً لنشر الدعوة الإسلامية وكان المسلمين بفعل حماستهم لنشر الدعوة الإسلامية قد نجحوا في استمالت الوثنيين في الدخول في الإسلام طمعا في الأجر والثواب من الله[١٦].

لقد كان للاتصالات التجارية والثقافية أثرها في نشر الإسلام والثقافة العربية في بلدان غرب أفريقيا ويذكر مؤلف كتاب المشايخ بإن بعض الفقهاء والتجار المسلمين في شمال أفريقيا سافروا إلي بلاد السودان لغرض التجارة ونشر تعاليم الإسلام ،مثل التاجر فلحون بن إسحاق بن واسين ، والمعلم موسي هارون ابن عمران الوسياني [١٧] ،وتشير المصادر بان الدولة الرستمية وجنوب الصحراء كانت تربطهم علاقات تجارية ذات طابع سياسي قائم على المصالح المشتركة بين الطرفين ،حيث أن تلك العلاقة كانت قد استمرت حتى بعد سقوط الدولة الرستمية أمام الفاطميين سنة ٢٩٦ هـ إذ فر العديد من الرستميين وأنصارهم من سكان تاهرت إلي ورجلان وتادمكة وجوا وغانا وبلاد التكرور وكانم برنو واودغشت وغيرها من مدن السودان [١٨] ،حيث عاشوا هناك واندمجوا مع الجاليات الإسلامية وكان لهذه الهجرات دوراً بارزاً في نشر الإسلام والثقافة العربية في تلك المناطق الأفريقية [١٩] .

إن هؤلاء التجار والمعلمون والفقهاء الذين جاءوا إلي تلك الديار والذين دفعتهم الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلي تلك المناطق قد ساهموا في بناء المساجد ونشر الثقافة العربية الإسلامية وتكوين جاليات عربية إسلامية في غرب أفريقيا .

وحتى ظهور دولة المرابطين على مسرح الأحداث في غرب أفريقيا في منتصف القرن الحادي عشر كان الإسلام ينتشر سلمياً باضطراد في غرب أفريقيا جنوب الصحراء على أيدي التجار من الشمال الأفريقي .

لقد قامت دولة المرابطين في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى في جنوب المغرب الاقصي بفضل جهود الفقيه المالكي عبد الله ابن ياسين الجزولي وكان قوام هذه الدعوة قبائل الصحراء الثلاث لمتونه وجداله ومسوفه ،وقد عمل هذا الداعي إلي نشر رسالة الإسلام في السودان فبعث الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قائدا لجيش المرابطين ، وكان هذا الأمير قد توجه إلي بلاد السودان في رحلته الأولي وترك أمر المغرب لابن عمه يوسف ابن تاشفين [٢٠] وعند رجوعه إلي المغرب كان قد تنازل على أمر المغرب لابن عمه وبعد اتفاق قد تم بينهما بحضور شيوخ لمتونه وأعيان الدولة والكتاب والشهود والخاصة والعامة بالتخلي عن أمر المغرب والتوجه إلي الصحراء لفتح أفريقيا [٢١] وقد زوده ابن تاشفين بالمال والعتاد والهدايا وانصرف أبو بكر إلي الصحراء فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلي إن استشهد رحمة الله عليه في بعض غزواته رمي بسهم مسموماً فمات رحمة الله عليه في شهر شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلي جبال الذهب من بلاد السودان[٢٢] .

وقد اعتنق العديد من أهل هذه البلاد الإسلام وتمسكوا به واخلصوا في نشر هذا الدين بين تلك القبائل [٢٣] وكان لنجاح المرابطين في السيطرة على مناجم الذهب من أهم معادن الثروة في بلاد السودان إن ساعدت على هجرة قبائل المرابطين إلي تلك المناطق واحتكاكهم بأهالي البلاد المفتوحة ،وكانت هذه الهجرات عامل مباشر لدخول العديد من السكان في الإسلام ،بينما القبائل التي لم تدخل في الإسلام فقد

خرجت في اتجاه الجنوب الغربي وفي مناطق متفرقة من بلاد السودان (٢٤)

لقد أثارت حادثة مقتل الأمير أبو بكر أن بدأت القبائل السودانية التي عم الإسلام بين قلوبها أن طالبت بدم الأمير واشتعلت الحرب بين المسلمين والوثنين ثم ما لبثت إن دخلت القبائل التي حالفت قبيلة السراكولا المسلمة ، إن دخلت في الإسلام هي الاخرى ودخل الإسلام مرحلة جديدة فأصبح الإسلام في أفريقيا الغربية قوة جديدة حيث كان مقتل الأمير في حد ذاته قد زاد من تغلغل الإسلام بين القبائل (٢٥) .

إن جهاد المرابطين في الجنوب أدي إلي استيلائهم على اودغشت سنة ١٠٥٤ هـ من ملك غانا كما أدي إلي استيلائهم على عاصمتها سنة ١٠٧٦ هـ والقضاء نهائيا على مملكة غانا الوثنية ،وقد تم إسلام أهلها المعرفون بالسننوكي وانتشروا في المناطق المجاورة يزاولون التجارة وإليهم يرجع الفضل في نشر الإسلام في مناطق عديدة من السودان .

وتؤكد المصادر إن الإسلام بدا ينتشر بقوة بين تلك القبائل حيث أصبحت تلك القبائل حاملة معها مبادي نشر الإسلام ،ويبدو من رسالة كان قد بعث بها القاضي محمد ابن العربي سفير يوسف ابن تاشفين إلي الخليفة المستظهر بالله العباسي في بغداد والتي يشير فيها إلي امتداد سيطرت يوسف ابن تاشفين إلي الجنوب في إشارة موجزة " مما يلي بلاد غانا وهي بلاد معادن الذهب "(٢٦) ،وكان لإسلام شعب التكرور في حركة المرابطين الأولى على عهد فقيه سوس المصلح ابن ياسين دورا كبير في نشر الإسلام ،فقد تابعت قبائل التكرور نشر الدعوة بين القبائل

الأفريقية الوثنية وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولبي والماند نجو وقبائل الولوف ونشروا بينهم الربطات والمدارس الإسلامية في السودان الغربي .

وقد استطاعت هذه القبائل إن تستفيد من حضارة المغرب واستعانوا بالدعاة من فقهاء المرابطين لتعليم الشريعة والقراءة والكتابة بل استفادت تلك القبائل التي دخلت الدين الإسلامي من عادات وتقاليد الحضارة العربية الإسلامية [٢٧] ،ومع الدفعة القوية التي قام بها المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أن اعتنق حكام ولاية كنجايا Kanga من قبائل الماند نجو الإسلام وبدو يمدون نفوذهم إلي أقصي الجنوب وجنوب الشرق حاملين معهم لواء الإسلام حتى نشأت على هذه الأراضِي إمبراطورية مالي الإسلامية [٢٨] ، كما إن شعوب سننوكي غانا الذين اعتنقوا الإسلام مدوا نفوذهم اتجاه ولاية أديارا diara وماسينا واتجهوا إلي منطقة ديا Dya واتخذوا منها مركزاً للتوسع في الحدود الشمالية لمنطقة الغابات حتى حملوا الإسلام إلي تلك المناطق وانشئوا مراكز إسلامية مثل مركز بجو Bogo جنوب نهر الفولتا الأسود ،ومن هذه المراكز نشطت المدن التجارية [٢٩] وكان نتيجة الدور الذي قام به المرابطون والقبائل الزنجية المسلمة التابعة للمرابطين ،إن أصبح الإسلام يمتد في تلك المناطق من المحيط الأطلسي غربا إلي مناطق كانم برنو شرقا ،كما إن مملكة سنغاي التي كان ملكها زاكاس Zakussi ينتمي إلي قبيلة لمطة احد قبائل الملثمين أول من أعلن إسلامه قبل ظهور المرابطين سنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٠ م[٣٠] .

لقد أصبح أبناء بلاد السودان الدرع الحصين للمغرب والأندلس والإسلام فدافعوا عنه دفاع الأبطال وقاتلوا تحت راية المرابطين فامتدت بسببهم قوة الإسلام وانتقلوا بعد عشرة سنوات من تاريخ إسلامهم عبر الصحراء الواسعة نحو الشمال ليأخذوا مكانهم على سفن الأسطول المغربي للعبور إلي الأندلس ،حيث شاركوا بكل شجاعة وإخلاص لذلك الدين الحنيف في معركة الزلاقه ،وكانوا قلعة منيعة للإسلام جعلتهم يغامرون بحضور المعركة بأنفسهم والي احد هؤلاء السود الميامين يرجع الفضل في تحطيم معنوية المعتدين النصارى عندما أجهز احد السود بمنجله على الفونسو السادس وضربه فتراجع الملك مذعوراً ورفعوا راية الإسلام (٣١) .

لعل ابرز خصائص انتشار الإسلام ببلاد غرب أفريقيا انه بدا بالطبقات العليا والأسرة الحاكمة وبعدها انتشر بين الرعايا، فقد أرسل المرابطين بعض علماء القبائل السودانية لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة فزادت حركة انتشار الإسلام في مالي ونفس الشيء أخذت مملكة مالي هي الاخري تنشر الإسلام وتدعو له بين الوثنيين وأخذت ترسل الدعاة لنشر الإسلام بين بقية القبائل حيث يقول الرحالة العمري" وملك مالي في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان"، وقد استمر هؤلاء الدعاة في نشاطهم الديني حتى بعد سقوط دولة المرابطين (٣٢) وكان هؤلاء الدعاة يحضون بنوع من التقدير والاحترام بين تلك القبائل في غرب أفريقيا ، فكانت إن تحولت بعض البيوت لاستقبال الطلاب وضيوفهم من اجل أن يتعلم المسلم تعاليم الدين الإسلامي ، وقد ظهرت من خلال ذلك فئة متعلمة مثقفة تضم بعض

العلماء استطاعوا تنظيم إدارة دولتهم الإسلامية ونجاحها على أكمل وجه.

**اثر الإسلام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية:**

فمن الناحية السياسية بعد الاحتكاك الذي حدث بين الحضارة الإسلامية والتقاليد المحلية الأفريقية اندمج المجتمع الإفريقي المسلم في الحياة السياسية بما يتماشي مع التعاليم الإسلامية، وتم القضاء على كل ما يخالف الشريعة الإسلامية من تقاليد محلية موروثة، واستطاع الإسلام بمنهجه السياسي والفكري أن يعدل تلك المناهج التقليدية حتى تتمشى مع الفكر الإسلامي.

لقد عرف الأفريقيين كيف يتعاملون مع شئون الحكم فاتخذوا نظام الشورى ونظام البيعة كأساس للحكم مثلما كان عند مسلمي المشرق، وتعلم أهل الحل والعقد أن ينشروا الأمن والعدل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية فاعطي حق الفقير في مال الغني ونظم الجباية ورد الحقوق إلي أهلها (٣٣).

إن الدارس للحياة السياسية في غرب أفريقيا يلاحظ إن النظم السياسية لا تختلف بعضها عن بعض في المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا سوء في إمبراطورية غانا أو مالي أو سنغاي أو كانم ... الخ .

وقد حاول حكام غرب أفريقيا تقليد نظم الحكم السائدة في البلاد الإسلامية على قدر ما سمعوا وعرفوا حيث إن النظام الذي وجد مع الإسلام قد اضعف النظام القبلي الموروث عن الوثنية والذي لم يكن له أثرا يذكر في ظل الإسلام وحضارته. (٣٤)

لقد كان المسلمين في غرب أفريقيا من تقاليدهم إن الناس يستجيرون بدار الخطيب فضلا عن المسجد خوفاً من بغض السلطان ،فيذكر ابن بطوطة إن زوجة السلطان منسا سليمان استجارة بدار الخطيب في نياني عاصمة مالي اثر اكتشاف اشتراكها في مؤامرة[٣٥] .

وكان من عادة أهالي أفريقيا الغربية إنهم يتبركون بالحجاج عند رجوعهم من أداء فريضة الحج وجرت العادة أن يخرج السلطان وحاشيته وأهل المدينة لاستقبال قوافل الحجيج وطلب الدعوات منهم ،كما كان لإشراف مكة مكانة مقدسة عند مسلمي أفريقيا حيث طلب الحاج اسكيا الأكبر خلال رحلته للحج من أمير مكة أن يبعث له بشريف ليتبركوا به فأرسل ذلك عام ٩١٥هـ ١٥١٩ م[٣٦] .

لقد اثر الإسلام تأثير كبير في تلك المناطق حتى إن حكام برنو غيروا من أسماء ألقابهم الوثنية بأسماء إسلامية فمثلا اسم بيري وهو اسم آلهة المطر في تقاليدهم الوثنية صار اسمه عثمان وميديلا Madila من أسماء آلهة كانم صار اسمه عبد الرحمن[٣٧] .

أما عن اثر الإسلام في الحياة الاقتصادية فمع انتشار الإسلام في غرب أفريقيا تضاعفت التجارة حيث أصبحت تنبكتو وكومبي ونياني وغيرها أسواقا تجارية تعج بالبضائع الأفريقية والأوروبية وتعددت الطرق التجارية التي تصل إلي تنبكتو وبقية المدن التجارية الأخرى ، وقد شجع الإسلام على العمل والإنتاج ووفدت مع المسلمين ومع الاحتكاك الجديد إلي جانب نشر الإسلام محاصيل زراعية جديدة[٣٨] وإدخال وسائل جديدة في الري واستبدال نظام التعامل الاقتصادي القديم بنظام جديد حيث كانت تمارس التجارة الصامتة وأصبحت هذه التجارة

لم تعد صالحة مع مرور الزمن فأدخلت النقود او العملة كما أدخلت الموازين والمكاييل .

وقد نشطت التجارة في ظل الأمن الذي ساد بلاد غرب أفريقيا وفي ظل الإسلام زادت المعاملات التجارية بين الناس ،حيث إن الإسلام يحترم الملكية الفردية ويأمر بالصدقة ويعترف بالوراثة ويبين الإسلام من خلال منهجه في الفكر الإسلامي إن المجتمع هو وحدة اقتصادية مترابطة .

ويعطي الرحالة البكري صورة عن التطور الاقتصادي الذي حدث في المجتمع الأفريقي وعن دور الموانى المغربية والقبائل المغربية والسلع المتبادلة بين غرب أفريقيا وشمال القارة ويؤكد البكري على بعض الكلمات والألفاظ العربية التي استخدمت في ظل الإسلام في المعاملات التجارية في غرب أفريقيا كالشبر وعقود البيع والشراء [٣٩]،وكثيرا ما كان التجار المسلمون يحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصي وثقافتهم ، وكان لهذا الاحتكاك أثره البارز في دخول العديد من هؤلاء الزنوج في الإسلام ،وكان عدد غير قليل من التجار المسلمين الذين يجمعون بين وظيفة التجارة والعلم فكل ما استقر هؤلاء التجار في مكان معين قام المسلم بإنشاء حلقات لتعليم القران والعبادة [٤٠] ،وكان تركيز الإسلام في بداية الأمر على المراكز الإسلامية الهامة والمدن الرئيسية ثم تسرب إلي المناطق النائية ونتيجة لنشاطهم ازداد انتشار الإسلام بزيادة نفوذ المسلمين لاتصالهم ببلاط الملك[٤١] .

فقد أصبح الإسلام كما يقول ترمنجهام Trimingham بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع الدويلات الإسلامية في أفريقيا الغربية(٤٢).

أما الحياة الاجتماعية فقد اثر الإسلام في الحياة الاجتماعية بين مختلف القبائل في التقريب بين القبائل المتناحرة وإصلاح وتهذيب النفوس عند الإنسان الأفريقي ،ولعل من أهم اثر للإسلام إن الضوضاء والعادات السيئة التي كانت مرتبطة بحفلات الوثنية الصاخبة قد انتهت بمجرد انتشار الإسلام بين تلك الفئات ،حيث تلاشت تلك العادات السيئة واختفت عبارة " إذا غربت الشمس رقصت أفريقيا "(٤٣) .

لقد كان للإسلام أثره في حياتهم اليومية حيث كان معظم قبائل السودان الغربي والأوسط قبل دخول الإسلام يسير عراة وبعضهم يستر جسمه بجلود الحيوانات وبخضوع منطقة غرب أفريقيا للمؤثرات الإسلامية بدوا يقلدون لباس الوافدين ويتزينون بأحسن الملابس " ولباسهم عمايم بحنك مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب قطن يزرع عندهم وينسج في نهاية الرفع واللطف يسمي القميصا ومنهم شبيه بزي المغاربة جباب ودرا ريع بلا تفريج ويلبس أبطالهم الفرسان أساور من الذهب "(٤٤) .

لقد مس الإسلام حياة الإنسان الأفريقي اليومية بعد إن كانوا عراة لا يغتسلون يوميا بدوا يتأنقون في ملابسهم من اجل الصلاة ويتطهرون يومياً لان الشريعة الإسلامية تتطلب طهارة المسلم ،حيث أصبح اللباس الجيد وخاصة في المناسبات من أسرار حياتهم الاجتماعية إذ ظهر عندهم فكرة الاهتمام بصناعة الملابس الحريرية والقطنية المحلية

إضافة إلي استيراد الملابس الحريرية والقطنية المطرزة التي تأتيهم عن طريق الشمال الأفريقي[٤٥] . ويشير كتاب تاريخ الفتاش إلي إن ملك سنغاي الاسكيا داوود كان يتزين بملابس مغربية عالية الجودة منها قميص سوسي نسبة إلي سوس ببلاد المغرب الاقصى وكان عبيده الذين يقفون بجانبه يوم الجمعة يلبسون ملابس حريرية رفيعة[٤٦] .

وكان الشرفاء وأبنائهم يرتدون جلاليب وعمائم ولهم شعر طويل يصل إلي أطراف الأذان تبركاً بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ،أما النساء المسلمات فكانوا يرتدون الحجاب [٤٧] كما كان للإسلام أثره في بناء المساكن ، ففي بداية الأمر كانت المنازل يتم بنائها من أغصان الشجر وجلود الحيوانات على شكل خيام ثم تطور بناء المنازل فأصبح يبني بمادة الطين ويسقف بالتبن ،ثم أصبحوا يستخدمون في البناء الحجر المركب والجير وقد انتشر هذا البناء في العديد من المنازل وقصور الملوك التي عرفت نظام الأقواس والزخرفة والنقش على الطراز العربي الإسلامي ، وقد انتشر هذا الطراز في معظم مدن غرب أفريقيا وخاصة في منازل الأثرياء[٤٨] . كما إن المساجد في طريقة بنائها ونقوشها استخدم فيها الخط الكوفي والخطوط الهندسية والآيات القرآنية كالخط الفاسي ،وقد شاع في غرب أفريقيا بناء الأسوار حول المدن مثل ما شاع في المغرب ويعزي ذلك إلي مساهمة الأندلس ومنهم المهندس أبا إسحاق الساحلي الملقب بالطويجين الأندلسي الأصل[٤٩] .

وتدل النتائج التي أجريت على مدينة كومبي صالح بأن هذه المدينة كانت شبيهة بالمدن الإسلامية وإنها محاطة بسور وقد وجدت بها مقتنيات أثرية منقوشة على كتابات عربية [٥٠] مما يدل على إن الإسلام كان قد وصل إلي تلك الديار منذ زمن مبكر .

ويصف بعض المؤرخين تخطيط المدن في غرب أفريقيا بأنها متأثرة بنمط العمارة الإسلامية في العصور الوسطي فكان لكل مدينة مسجدها الكبير حيث إن بناء المساجد كان قد تم على طراز عربي إسلامي في كل مدينة انتشر فيها الإسلام ،وكان من اهتمام المسلمين بالإسلام أن أنشئت مساجد في معظم المدن التي تشرف على طرق القوافل التجارية، بل إن اثر الإسلام في هذه المناطق أن تحولت تلك المساجد إلي مراكز إشعاع حضاري حيث شملت بلاد السودان الغربي والأوسط نهضة علمية وقامت فيها مراكز ثقافية شكلت مركزاً من مراكز الإشعاع الحضاري برز من خلالها العديد من الأدباء والعلماء في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية[٥١] .

لاشك في إن الثقافة العربية الإسلامية بما أدخلته من مفاهيم جديد قد أثرت تلقائيا في المفاهيم الاجتماعية وفي التقاليد وفي العادات ،فقد امتص الإفريقيون في غرب أفريقيا الكثير من معتقدات الإسلام دون أن يترتب على ذلك هزة عنيفة في مجتمعهم ،وإذا ما قارنا بين حياة الأسرة المسلمة وحياة الأسرة الوثنية التي تنتمي إلي نفس المكان فلابد أن نلاحظ بوضوح اثر الإسلام ومع هذا لا يمكن أن نسلم بان القانون الإسلامي النموذجي هو الذي كان موجودا في تلك المجتمع،ولكن لا يمكن إغفال أن التغيير الذي حدث في المجتمع كبير وان الصراع بين

الشريعة والتعاليم ظل لفترة طويلة ،حيث استمرت نظم إسلامية إلي جانب تقاليد ترجع إني ما قبل الإسلام ويختلف هذا التغير في المدن عن المجتمعات الريفية ،ففي المجتمع الزراعي الريفي عادة ما تستمر المحافظة على التقاليد القديمة الموروثة والميل إلي فكرة التغير اقل من المدن ،والدارس لنظام الوراثة ومكانة الأسرة في المجتمع الإفريقي ونظم الزواج والاستجابة للقوانين الوضعية وقوانين الضرائب ، يستطيع أن يكون فكرة عن سيادة الإسلام و تعاليمه وتأصله في المجتمع الأفريقي (٥٢) .

لقد اختفت بفضل الإسلام العديد من العادات السيئة فكان نظام الزواج في المجتمع الأفريقي يتسم بالفوضى فلا يوجد تحديد لعدد الزوجات ... كما أن الزواج يتم داخل العشيرة حفاظاً على قوة القبيلة ومع دخول الإسلام إليهم انتهت تلك التقاليد القديمة وارتبطت الأسرة بضوابط الشريعة الإسلامية ورفع الإسلام من مكانة المرأة و حفظ لها حقوقها وحقوق أبنائها رغم إن هذا التغير في محيط الأسرة قد استمر مدة طويلة (٥٣) فقد بدا اضمحلال بعض العادات الاجتماعية القديمة وبالذات نظام الزواج ، حيث أصبح يسير وفق الشريعة الإسلامية ويضيف ابن بطوطة احتفال سلطان مالي في الأعياد الدينية فيقول " ... ويأتي دوغا الترجمان ببناته الأربعة وجواريه "(٥٤) .

لقد حمل الإسلام معه القيم النبيلة التي تدعو إلي المساواة بين الناس لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ،حيث إن اعتناق هؤلاء للإسلام قد هذب من سلوكهم وساهم في إصلاح المجتمع وقلل من الفوارق اللونية والطبقية والنزعات القبلية وتزوج عدد

من الوافدين إلي تلك الديار من زنجيات [٥٥] وأنجبن منهن ، وقد وصف توماس ارنولد مسلمي غرب أفريقيا بقوله " إن المسلمين في تلك المناطق لا يعرفون التعصب في أي شكل من الأشكال ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء [٥٦] .

وعن اثر الإسلام في المناسبات الدينية فقد كانت الطقوس والشعائر الدينية السائدة في غرب أفريقيا قبل انتشار الإسلام بينهما ذات ثقافة وثنية قديمة ،وعندما دخل الإسلام إلي هذه الديار انتهت تلك العادات الوثنية وحل محلها العقيدة الإسلامية وقد ترتب على تأثير الإسلام في تلك الاحتفالات أن أصبح المجتمع الأفريقي المسلم يحيي الاحتفالات الدينية بقدوم شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الاضحي والمولد النبوي الشريف ، ففي شهر الصوم وهو شهر العبادة كان من عادة المسلمين في أفريقيا الغربية إن يأتون إلي المسجد قبل صلاة المغرب ببعض أنواع الأكل مَن حبوب وتمر وخبز والحليب ... ويوزعون ذلك على المحتاجين من الفقراء وعابري السبيل وكان قاضي المدينة في شهر رمضان من كل سنة على عادتهم الإسلامية يقدم الهدايا والصدقات في ليلة القدر ويأمر بطبخ الطعام ثم يحمله فوق رأسه وينادي قراء القران وصبيان المكتب ويأكلون وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم[٥٧] .

وفي هذا الشهر المبارك تتم في المساجد صلاة التراويح بعد صلاة العشاء كغيرها من البلاد الإسلامية الاخرى ويستمر قراءة القران شهر كامل ويقوموا فيه بسرد صحيح البخاري وكتاب الشفا للقاضي عياض وفي أخر الشهر كانت تمنح كسوة للقاضي وأصحاب المدائح [٥٨] ،ومن

المظاهر التي تبرهن على اثر الإسلام اهتمامهم بعيد الفطر المبارك الذي يكون بعد نهاية شهر الصوم وفي هذا الشهر تنتظر فيه الناس رؤية هلال العيد ، وبمجرد رؤيته يبلغ الناس دار السلطان أو القاضي للإدلاء بشهادة رؤية الهلال ويتم الإعلان عنه وهي عادة متبعة في معظم البلاد الإسلامية ،وقد انتقلت هذه العادة عبر الشمال الأفريقي وكان الناس يلبسون في الأعياد ملابس خاصة بأعياد المسلمين ويهللون بقدوم عيد الفطر ويفرحون به مصحوبين أطفالهم لشراء لوازم العيد من ملابس وأطعمة [٥٩] وهدايا ... وفي صباح العيد تتصافح الأيدي وتتبادل الزيارات وتتصدق الناس على الفقراء والمساكين وعبري السبيل .

وفي مناسبة عيد الاضحي المبارك يخرج الباشا على المصلى في موكب تشريفي راكبا جواده محفوفاً برجال الدولة وقادة الجند وحملة الإعلام وغيرهم ، وفي هذا العيد يتم نحر ضحية العيد الخاصة بالباشا والقاضي وتخرج الناس لهذه المناسبة وتقام العاب الفروسية وغيرها وتلبس الناس ملابس العيد [٦٠] وتتحدث المصادرعن احتفال مسلمي غرب أفريقيا بالمولد النبوي الشريف وكان الشيخ أبا القاسم التواتي الذي سكن تنبكتو كان أول من نظم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وكان يتولي إطعام أصحاب المدائح لشدة حبه لمدح الرسول صلي الله عليه وسلم[٦١] .

وكان الاحتفال بالمولد النبوي يتسم بطابع خاص وخاصة في المدن الكبيرة حيث يخرج الناس ليلة المولد النبوي في الشوارع لمدح الرسول صلي الله عليه وسلم في تظاهرة دينية كبيرة ويضربون الطبول ويزينون المساجد ويحملون الفوانيس لإضاءة الشوارع وتقام المدائح في

المساجد والزوايا الصوفية والربطات والميادين العامة ويمكثون إلي الثلث الأخير من ليلة المولد [٦٢] وهي عادات انتقلت من البلاد الإسلامية من المشرق ومن شمال أفريقيا ، ومن القصائد التي كانت تقال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد دلائل الخيرات للشيخ الجزولي وقصيدة البردة والهمزية للبصيري[٦٣] ،وبشكل عام فإن الإسلام دخل إلي غرب أفريقيا حاملاً معه ثقافة عربية زاهرة وكان طبيعة الإسلام أن تبقي من التقاليد والنظم ومظاهر الحياة ما لا يتعارض وتقاليد الإسلام ومبادئه وما يلائم طبيعة المجتمع ،ولم يعمل على تقويض العادات والتقاليد الأفريقية القديمة ،وقد أدي ذلك إلي ظهور مجتمع أفريقي إسلامي متحضر إذ سرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة تقارن بنظائرها ويفوقه في الدول المعاصرة من أوروبا المسيحية ،ولذلك فان القول بإن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد السودان الغربي والأوسط تقترن بالإسلام وبالإسلام كما يقول جولي Gouilly يبدأ العصر التاريخي لأفريقيا السوداء والإسلام والعلوم العربية الإسلامية هي التي أدت إلي قيام الإمبراطورية الأفريقية الإسلامية الكبرى غانا ، ومالي ، وسنغاي ثم برنو والهوسا و التكارره والفولانيين أو الفلانا[٦٤].

وهذا ما لاحظه العديد من الكتاب والمؤرخين من إن المساحات التي يضمها الإسلام في هذه المناطق كانت اسبق في تحطيم قيد العبودية والاستعمار عن غيرها من البقاع الأفريقية الاخري التي لم يصلها الإسلام أو اللغة العربية أو حتى في جزء من أراضيها ، وعن اثر الإسلام يقول سمت Smith في كتاب "محمد والإسلام" احترم الدعاة

المسلمون العادات والتقاليد والعقائد المحلية ولم يحتقروها وهذا احد أسباب نجاحهم وهو ما ينبغي أن تحذوا البعثات التبشيرية المسيحية حدوه[٦٥] ، أما المستعمر الأوروبي فقد جاء بالمسيحية كما يقول بليدن Blyden احد المثقفين المسيحيين الأفريقيين في القرن التاسع عشر " فتعلم الزنجي وبنوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية انه جنس منحط عديم الأهلية والكفاءة وانه دون حكامه البيض ومعلميه.

لقد دهمهم المستعمر وأجبرهم على اعتناق المسيحية بمختلف الوسائل والإغراء واستولوا على بلادهم بالعنف والقهر والتفرقة وأنزلوهم منزلة دون منازل الإنسانية لذلك بان أعظم المثقفين من الزنوج المسيحيين يتطلعون إلي اليوم الذي يزول فيه اثر لندن وباريس ولشبونه وقد زال حديثا إلا قليل "[٦٦] .

وبينما شعر الإنسان الأفريقي المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه وكفل له حقه نجد ان الاستعمار الأوروبي قد جعل الأفريقي المسيحي حائر لا يعرف مستقبله فلا هو قريب من مجتمعه ولا هو مرضي عنه الأوروبي المستعمر لكي ينتسب إلي الحضارة الأوروبية المسيحية فحرم الثقافة العادلة والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحي الأبيض ، وكان ذلك عكس الإسلام الذي اعترف منذ أول وهلة بمساواة التامة بين الأجناس وكفل للمسلم جميع حقوقه دون النظر إلي لون أو جنس[٦٧] .

يقول الرحالة منجو بارك Mungo Park " لقد عمل الإسلام على تطوير بلاد الزنوج ولا يزال يعمل " ويقول الدون ستانلي Daan Stanley في كتابه عن الكنيسة الشرقية Easteron Charch

لا يمكن أن ننسي إن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلي تقدم وتطور القارة الأفريقية الواسعة ومهما كان مستقبل المسيحية في افريقية فليس هناك ادني شك في أن هذا المستقبل سوف يتأثر بالجانب الحماسي عند الزنوج المسلمين [٦٨] ،لقد كان للإسلام أثره البارز في حياة الإنسان الأفريقي المسلم ، وقد وصف القلقشندي مسلمي كانم بأنهم " يابسون في الدين" ،حيث إن القران كان بالنسبة للأفريقي أكثر اهتمام من غيرهم من بقاع العالم الإسلامي حيث كان المسلم يحتاج إليه في وسائل العلاج من بعض الأمراض ،وكان من اهتمام غرب أفريقيا بالإسلام حفظ القران كما يقول ابن بطوطة في رحلته إلي مملكة مالي الإسلامية في القرن الرابع عشر الميلادي ،حيث وجد أطفالاً مقيدين في سلاسل من اجل حفظ القران الكريم ويروي ابن بطوطة انه دخل يوم عيد الفطر على قاضي مالي فوجد أولاده في القيود ولما طلب منه تسريحهم قال له القاضي لا افعل ذلك حتى يحفظوه[٦٩] .

**خلاصة القول** إن الإسلام كان قد شق طريقه إلي قلب القارة الأفريقية شرقا وغربا على أيدي أولئك التجار والدعاة الذين حملوا معهم مشعل الحضارة الإسلامية ،إن الدارس لهذه الفترة يلاحظ إن هناك علاقات بين مناطق الشمال الأفريقي والمملك السودانية عبر العصور الكلاسيكية وقد زادت هذه العلاقة وتوطدت مع الفتح الإسلامي وخاصة مع قيام دولة المرابطين حيث أعطوا دفعة قوية للإسلام بين القبائل الوثنية في أفريقيا حتى أصبح الإسلام ينشر من طرف الحكام الأفارقة بين السكان المحليين وكان من نتائج ذلك ان تكونت جاليات عربية إسلامية ومراكز للثقافة ساهمت في تشكيل مجتمع غرب أفريقيا في جوانبه السياسية

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ان المتتبع للثقل السياسي والاقتصادي في مدن غرب أفريقيا يلاحظ ان المسلمون في بداية الفتح أسسوا مدينة كومبي صالح في مملكة غانا ثم بعدها انتقل الثقل السياسي والاقتصادي إلي مملكة مالي الإسلامية ثم إلي سنغاي ، ولذلك فان دراسة اثر الجوانب السياسية والاقتصادية والقوانين الفقهية لتلك المدن قد يفيد في دراسة اثر الإسلام في تشكل المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا في العصور الوسطى .

# المصـــادر والمراجـــع

١- حسن احمد محمود ، رد الإسلام والثقافة العربية في أفريقيـا ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢١٠ ــ عطا شوقي الجمل ، الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ، مجلة المناهل عـدد ٧ سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣٤

٢-عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان باريس ١٩٦٤ ، ص ٢١

٣ــ ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملـوك الأندلس والمغرب ج ١ ، تحقيق كولان وبروفنسال ، دار الثقافـة بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٧ ــ احمد العبادي ، في تـاريخ المغـرب والأندلس ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤١

٤- ابن خلدون ، العبر مجلد ٤ ، ص ٢٢١

٥- محمد الغربي ، الجذور الادريسية لإمبراطورية غانـا والأصـول السنغالية للدولة المرابطية ، مجلة دعوة الحق ،عدد ٢٦٩ مطبعـة فضالة المحمدية المغرب ،ابريل ١٩٨٨ ، ص ٢٣٧

٦- مكاني ، مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين الشمال أفريقيا و وسط السودان ، مجلة البحوث التاريخية السنة الثالثة العـدد الأول طرابلس ، يناير ١٩٨١ ،ص ١٢ ــ أمين الطيبي ، وصول الإسلام وانتشاره في كانم برنو بالسودان الأوسط ، مجلـة كليـة الـدعوة الإسلامية عدد الرابع ١٩٨٧ ، ص ١٨٠

٧- حسين مؤنس ــ فزان ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا ، مجلة كلية الآداب بنغازي ١٩٦٩ ، ص ٩١ــ ١٠٠ ــ م كاني ، مرجع سابق ، ص ١٣

٨- Trimingham . g. S .A hrstory islumin West Africa - Oxford . U . P 106 – 108

- أمين الطيبي مرجع سابق ، ص ١٨٣

٩ - أمين الطيبي مرجع سابق ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤

١٠ - البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ،مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٧٢ ــ إبراهيم طرخان ، الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ٢٧ جزأن الأول والثاني ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٧

١١- القلقشندي ، صبحي الاعشي ، طبعة دار الكتب المصرية ج ٥ القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٨٤

١٢- إبراهيم طرخان ، نفس المرجع نفس الصفحة

١٣- بوفيل ، تجارة الذهب ، ترجمة الهادي أبو لقمة ــ محمد عبد العزيز ، طبعة ثانية بنغازي ١٩٨٨ ، ص ١١ ــ ١٢ ــ احمد مصباح الأحمر ، أفريقيا والعرب طبعة أولي ١٩٩٦ ، ص ٧٨

١٤- احمد سعيد الفيتوري ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧

١٥- ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص ٢٧ ــ احمد الفيتوري ، نفس المرجع نفس الصفحة

١٦ - إدريس الحريري ، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام

هناك ــ مجلة البحوث التاريخية العدد الأول يناير ١٩٨٣ ،ص ٧٨

- احمد مصباح الأحمر ، مرجع سابق ، ص ١٨٧

١٧ - إدريس الحريري ، مرجع سابق ، ص ٨٤

١٨ - البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧٢ ــ إدريس الحريري ، صـــ٨٧.

١٩ ــ إدريس الحريري ،نفس المرجع نفس الصفحة

٢٠ ــ ابن عذاري ، مرجع سابق ، ص ٢١

Bouvil .E.W. The Gldon trade Of The moors Oxford un Prss . London . 1958. P. 74

٢١ - ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص ٢٥

٢٢- أمين الطيبي ، دراسات و بحوث في تاريخ المغـــرب والأنـــدلس الدار العربية للكتاب ١٩٨٤ ، ص ٣٠٨

٢٣- الناصري ، الاستقصاء الدار البيضاء ١٩٥٤، صـــ١٠١- احمـــد العبادي ، في تاريخ المغـــرب والأنـــدلس - الإســـكندرية ١٩٦٧، صـــ ٣٠٤

٢٤- حسن احمد محمود ، المرحلة الأفريقية في تـــاريخ المـــرابطين ، المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٢ ســـنة ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ ــ عبد الرحمن زكي ،الإسلام والمسلمين في غرب أفريقيـــا القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٩٣ ــ ٩٤.

ــ Bouvil . E . W . Opcit . P. 84

٢٥ - محمد المغربي ، موريتانيا ومشاغل المغرب الأفريقية ،الربـــاط ١٩٦٤ ، ص ٩٢

٢٦ ــ عصمت دندش ، المرابطين ودورهم في نشر الإسلام في أفريقيا الغربية ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨١ ، ص ١٠٨.
Bouvil . E . W . Opcit . P. 60

٢٧- عصمت دندش ، ص ١٢٧

٢٨- عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، باريس ١٩٦٤ ، ص ٣
-عصمت دندش ، نفس المرجع نفس الصفحة

٢٩ -السعدي ، مصدر سابق ، ص ٣ ــ عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء ،منشورات جامعة قاريونس بنغازي طبعة أولي ١٩٩٦ ، ص ٢٤٧

٣٠-السعدي ، مصدر سابق ، ص ٣ ــ عطية الفيتوري ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣

٣١- عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية منذ أقدم العصور إلي اليوم ،مجلد ٥ مطبعة فضالة المحمدية المغرب ١٩٨٧ ،ص ٣٧

٣٢ - محمد ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في الممالك والأمصار ج ١ ،نشر احمد زكي باشا ،القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٥٠٧
- عصمة دندش ، ص ١٥٤

٣٣ - عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، ص ١٣٩ ــمحمود كعت ، تاريخ الفتاش ، باريس ١٩٦٤ ، ص ١١ ــ احمد الأحمر ، أفريقيا والعرب طرابلس ١٩٩٦ ، ص ١٠٨

٣٤ -عطا شوقي الجمل ، الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ، مجلة المناهل عدد ٧ نوفمبر ١٩٧٦ الرباط ، ص ١٦٣

٣٥ – إبراهيم طرخان ، مرجع سابق ، ص ٦٦

٣٦ –محمود كعت ، مصدر سابق ، ص ٢٤ ــ ٩٠ ــ ١١٢ ــ١٢٠

٣٧ –إبراهيم طرخان ، مرجع سابق ، ص ٦٧

٣٨ –نعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ١٩٦٠ ، ص ١٢٨

٣٩ – شوقي الجمل ، مرجع سابق ، ص ١٦٢

٤٠ – شوقي الجمل ، نفس المرجع ، ص ١٤٢ ــ احمد بابا تنبكتو ، نيل الابتهاج ، إشراف و تقديم عبد الحم عبد الله الهرامه كلية الدعوة الإسلامية ١٩٨٩ ــ عبد الحميد الهرامه ، من الرسائل الليبية بين مخطوطات تنبكتو ، مجلة الوثائق و المخطوطات مركز جهاد طرابلس عدد الثالث طبعة ثالثة ١٩٨٨ ، ص ١١٢ ــ ١١٣

٤١ - عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧٦

٤٢ – Trimingham J . S . Islam in West Africq . Oxf 1959 . P. 28

٤٣ــ Trminghnm . j . Opcit . P . 125 – 126

44– القلقشندي ،صبحي الاعشي ، ج٥ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٨٣ ، ص ٢٩٩

٤٥– بانيكار مادهو ، الوثنية والإسلام ، ترجمة احمد فواد بلبع ،ج ٢ القاهرة المجلس الاعلي للفنون والثقافة ١٩٨٨ ، ص ٩٤ ــ أمطير سعد غيث احمد ، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي ،دار المدار الإسلامي طبعة أولي ، بنغازي ٢٠٠٥ ، ص ٣٧١

٤٦ – محمود كعت ، مصدر سابق ، ص ١١٤

٤٧- أمطير سعد غيث ، مرجع سابق ، ص ٣٧٢

٤٨-عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين ١٤٩٣ ــ ١٥٩٢- الجزائر بدون سنة الطبع ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧

٤٩ -نعيم قداح ،مرجع سابق ، ص ١٥٤ ــ ١٦٠

٥٠ - محمد الغربي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧

٥١ - نعيم قداح ، ص ١٥٤

٥٢ -عطا شوقي الجمل ، مرجع سابق ، ص ١٦١.

Trimingham J opcit . P. 124 .

٥٣ ــ شوقي الجمل ، نفس المرجع نفس الصفحة

٥٤- ابن بطوطة ، تحفة النضار في غرائب الأسفار ، تحقيق عبد الهادي التازي ، مجلد ٤ طبعة مطبعة فضالة المغرب ١٩٩٧ ، ص ٢٦٠

٥٥- السعدي ، ص ١٨

٥٦- توماس ارنولد ، الدعوة إلي الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ١٩٥٧ ، ص ١٤٠٢

٥٧ ــ السعدي ، ص ١١٨ ــ ١٧٩ ــ ١٨١

٥٨ ــ السعدي ، ص ٢٦٦

٥٩ ــ ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١

٦٠ ــ محمد الغربي ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، بغداد دار الرشيد ١٩٨٢ ، ص ٦١٩

٦١ ــ السعدي ،ص ٥٩ ــ عبد الحميد الهرامه ، نافذة على التاريخ و التراث الإسلامي ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية عدد الرابع طرابلس ١٩٨٦ ،ص ٢٢٩ ــ ٢٣٣

٦٢ ــ الهادي المبروك الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي في أفريقيا فيما وراء الصحراء ــ القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٨٥ ــ أمطير سعد غيث ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠

٦٣ ــ السعدي ، ص ٣١ ــ ٤٣ ــ ٥٧

٦٤ ــ إبراهيم طرخان ، مرجع سابق ، ص ٥٢

٦٥ ــ إبراهيم طرخان ، نفس المرجع نفس الصفحة

٦٦ ــ إبراهيم طرخان ، ص ٦٥

٦٧ ــ نعيم قداح ، ص ١٣٥

٦٨ ــ نعيم قداح ، نفس الصفحة ــ إبراهيم طرخان ، نفس المرجع نفس الصفحة

٦٩ ــ ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٢٦٥ ــ إبراهيم طرخان ، ص ٦٥